الفصل الثالث

الفسطاط..الإزدهار الاقتصادى

obeikandl.com

الفسطاط ..
الإزدهار الاقتصادى

أسهب الرحالة والجغرافيون المسلمون فى وصف الفسطاط ونستطيع أن نستشف من أقوالهم مدى ما بلغته هـ .ه المدينة من ازدهار على مر الأيام فها هو ذا المقدسى الجغرافى يقول عنها « أن الفسطاط هو مصر فى كل قول . اشتهر اسمه رجل قدره فهو مصر مصر . . . . كثير الأجله والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص . حسن الأسواق والمعايش ، ولقياسرته لياقة وبهاء ، ليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر من مراكب ساحله . . به أطعمة لطيفة وحلاوات رخيصة كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهواء ، معدن العلماء طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية ، ومعروف كثير وصدقة . . . رغبتهم فى الخيربينه . . ودورهم أربع طبقات وخمس . . وسمعت أنه يسكن الدار الواحدة مائتى نفس ، وسمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الأمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل ، فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريبا مما قالوا . . ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملؤه من كل جانب من المصلين ، وهذا الجامع يسمى الغلانى ـ يقصد مسجد عمرو بن العاص . . . وقد إلتفت عليه الأسواق . . وهو أعمر موضع

بمصر . . وزقاق القناديل عن يساره . . والجامع الفوقانى من بناء ابن طولون أكبر وأبهى من السفلانى . . . مشرف على فم الخليج وغيره وله زيادات وخلفه دار حسنة » (١) .

ونرحل إلى كتاب المسالك والممالك للاصطخرى لنجده يقدم لنا بين صفحات كتابه تعريفا شافيا للفسطاط فيذكر عن مصر « وأما صفة مدنها وبقاعها ـ مصر ـ فإن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط وهى على النيل من شرقية ، شمالى النيل . . والبلد كله على جانب واحد إلا أن فى عدوة النيل أبنية قليلة تعرف بالجزيرة ـ يراد جزيرة الروضة ـ يليها على الشط الآخر الجيزة . . ومعظم بنائها ـ أى الفسطاط ـ بالطوب طبقات وأكثر السفل بها غير مسكونة . . وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمان طبقات . . وبها مسجدان للجمعة أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الأسواق ، والآخر بأعلى الموقف بناه أحمد بن طولون » (٢) .

يدل ما ذكره كل من المقدس والاصطخرى على امتداد عمران الفسطاط إلى مدينة القطائع ، وان كانت المدينة قد خربت كمقر لحكم الأسرة الطولونية إلا أنها سرعان ما عمرت فى الفترات اللاحقة كإمتداد طبيعى للفسطاط وضاحيتها العسكر التى صارت جزءاً لا يتجزأ من المدينة . أما الدلالة الأكثر أهمية فى حديثهما فهى استقرار الأنماط المعمارية بالمدينة ، وهذا نراه فى وصفهم العمارة السكنية بأنها مزدهرة

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٢) الإصطخرى ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ليدن ١٩٢٧ م .

وبعض الدور طبقات ، وذات أحجام كبيرة ، بل وبعضها لا يسكن طابقه السفلى . ومثل هذا الوصف الذى جاء قبيل العصر الفاطمى يفيد كثيرا فى تأريخ الدور المكتشفه بالفسطاط منذ أوائل هذا القرن إلى عصرنا الحاضر .

ومن أكثر الرحالة الذين أسهبوا فى وصف الفسطاط وعمرانها فى العصر الفاطمى ، الرحالة ناصر وخسرو ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م ، فيصف مدينة مصر أى الفسطاط بأنها شيدت علىَ ربوة . وجانبها الشرقى جبلى يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال . وفى طرف المدينة جامع ابن طولون وهو مشيد على ربوة وله جدران محكمة . . . وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات . وسمعت من ثقات الناس أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من . سبعة أدوار ، وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى كبر ، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر . وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما . وقد أثمرت كلها ، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى .

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورا كثيرة فيها حجرات الاستغلال أى للإيجار ، ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ، وتسع ثلاثمائة . وخمسين شخصا . وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ويسير فيها الناس .

وفى مصر سبعة جوامع ، غير جوامع القاهرة . والمدينتان

متصلتان . . وفيهما معا خمسة عشر جامعا (مسجد جمعة) . وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما .

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى « تاج الجوامع » . شيده عمرو بن العاص ، أيام امارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب ، وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل . ويحيط بالمسجد ، من جهاته الأربع ، الأسواق ، وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، فى أى وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . . . . وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب . وقيل انه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب . ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار . . . كما أحضر جلد بقر من الحبشة ، يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس . وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا .

وقد رأى فى شهرى ديسمبر ويناير بالفسطاط فى يوم واحد هذه

الفواكة والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر .

كل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها ربيعى ، وبعضها صيفى وبعضها شتوى ، لا يصدق هذا ، ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ، ولم اكتب الامارأيت ، وأما سمعته ثم كتبته ، فليست عهدته على . وولاية مصر عظيمة الاتساع ، بها كل أنواع الجو من البارد والحار وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق .

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البلوقلمون بلون مختلف فى كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن .

وسمعت من بزار ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير مغربية وهى تساوى ثلاثة دنانير ونصف نيسابورية . . ومدينة مصر ـ أى الفسطاط ـ ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة ، بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاءون من النيل أيضا . يحمله بعضهم على الأبل وبعضهم على كتفه . ورأيت قدورا من النحاس الدمشقى ، كل واحد

منها يسع ثلاثين منا ، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب . وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها تؤجر الواحد منها بدرهم فى الشهر ، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة . . . وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فانه يوضع على جمل ، ويعطى جرسا بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس ، وينادى قائلا : « قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب » .

ويعطى التجار فى مصر ، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف أو ورق ، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء .

يستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتا للمصابيح يسمونه « الزيت الحار » . والسمسم هناك قليل وزيته عزيز ، وزيت الزيتون رخيص . والفستق أغلى من اللوز ، ولا تزيد العشرة أطنان من اللوز على دينار واحد .

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وايابهم من البيوت إلى السوق . وفى كل حى على رأس الشوارع ، حمر كثيرة عليها برادع مزينة ، يركبها من يريد ، نظير أجر زهيد . وقيل انه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى . ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر ، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف ، ويركبها العلماء . ورأيت كثيرا من الحمر البلق كالخيل بل أجمل .

وكان أهل مدينة مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧ م) . . . . ورأيت هناك رباطا يسمى « دار الوزير » لا يباع فيه سوى القصب . وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون ، وفى الأعلى الرفاءون . . . وقيل أن فى هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه أو مثله [١] .

يتبين لنا مما ذكره ناصرو وخسرو أن الفسطاط كانت ذات نشاط إقتصادى كثيف ، ويرى أندريه ريمون أن الفسطاط كانت مركزا تجاريا تتجه إليه السفن عبر فرعى رشيد ودمياط من دلتا النيل .

وأتت إلى الفسطاط سفن تجارية من صقلية والشام والعراق والأندلس والمغرب وبيزنطة وحتى من تفليس فى جو رجيا حالياً . كانت قائمة السلع التى يتم المتاجرة فيها طويلة لدرجة مذهلة فعلى سبيل المثال التاجر نهراى بن نسيم القادم من مدينة القيروان والذى تم التحقق من نشاطه فى الفسطاط خلال الفترة من عام ١٠٤٥ إلى عام ١٠٩٦ يتاجر فى ١٢٠ سلعة مختلفة على الأقل . فقد كانت مصر تصدر الكتان إلى صقلية وتونس ، وتستورد الحرير من الأندلس وصقلية ، والمنسوجات من تونس وصقلية وبلاد الروم وفارس ، والجلود من تونس وصقلية وكانت الفسطاط مركزا وسيطا لاعادة تصدير منتجات الشرق كالتوابل والمواد العطرية والصموغ والأحجار الثمينة . . . الخ .

---

(١) ناصرو خسرو ، سفر نامه ، ص ١١٦ : ص ١٢٢ ترجمة د . يحيى الخشاب ، سلسلة الألف كتاب الثانى (١٢٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م .

قدرت مساحة الفسطاط فى هذه الفترة بـ ٧٤٠ فدان وقدر عدد سكانها بـ ١٢٠ ألف نسمة ، ومثل ميناء المدينة مركزها الرئيسى ، وكان نشاط المدينة الاقتصادى يتمركز فى مثلث رؤوسة عند باب القنطرة فى الجنوب وباب مصر فى الشمال ، وباب الصفا فى الغرب . ومن الشارع الرئيسى على النيل تتفرع شوارع أخرى رئيسية وفرعية تتنشر بها الوكالات والأنشطة الحرفية والخانات والأسواق [١] .

مر بالفسطاط العديد من الأحداث التى أثرت فى عمرانها : ويركز مؤرخوا المدينة على حدثين هامين :

الأول : هو الشدة المستنصرية التى حلت بالبلاد فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) ويعود تعاظم أمر هذه الشدة إلى اضطراب الدولة وضعفها واتصال الفتن وضعف فيضان النيل ، ويذكر المقريزى عن هذه الشدة العديد من الحوادث ومنها بيع رغيف الخبز فى زقاق القناديل بالفسطاط بخمسة عشر ديناراً وأكل الناس القطط والكلاب ولحوم البشر [٢] .

وتأكد صحة ما ذكره المقريزى من خلال وثائق الجينزة اليهودية حيث أمكن من خلالها رصد ارتفاع السلع فى تلك الشدة خمسة وعشرين ضعف الثمن العادى . وتمخضت هذه الشدة عن خراب العديد من الأماكن بالفسطاط إذ تؤكد حفريات كوبياك وسكانلون وجود هجرة

---

(١) أندرية ريمون : تاريخ حاضرة ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ تحقيق دكتور سعيد عاشور ، كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، ١٩٩٠ م .

من الجزء الشرقى للمدينة تعود إلى عصر المستنصر [١].

والحدث الثانى هو حريق الفسطاط عام ٥٦٥ هـ/ ١١٦٨ م . ذلك الحريق الذى أمر بإضرامه شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد فى الفسطاط ، عندما توجه القائد الصليبى « آمورى » إلى مصر غازيا ، فاستولى فى طريقة على بلبيس ويصف مؤرخ صليبى ما حدث فى تلك المدينة من فظائع على يد القوات الصليبية على النحو التالى : « دخل رجالنا إلى المدينة شاهرين سيوفهم ، وبدأوا فى قتل كل من يلاقونه ، سواء كانوا رجالاً أو نساءًا ، عجائز أو شباباً ، دون مراعاة لأحد منهم . . وحين كانوا يجدون عذارى أو عجائز كامنين داخل الغرف كانوا يقتلونهم بحد السيف ولا يحافظون إلا على أولئك الذين قد يحصلون من ورائهم على فدية كبيرة ، وأخيراً حدث دمار رهيب وسلب مفزع » .

وتمكن آمورى من أسرابن شاور ثم بعث لوالده برسالة مهينة ، تقول الرسالة :

« يتساءل ابنك فيما إذا كنت أظن بأن بلبيس قطعة من الجبن يمكننى إلتهامها ، نعم ، فى الواقع إن بلبيس هى قطعة الجبن والقاهرة قطعة الزبد اللتين أود إلتهامهما » وكان سلوك الصليبيين مذموماً إنسانياً ، كما كان قليل الحصافة سياسياً ، وحينما علم شاور بما حدث قرر الاستنجاد بنور الدين محمود حاكم دمشق ، وحين وصل الصلليبيون إلى مشارف القاهرة ، رأى شاور أنه غير قادر على الدفاع عن الفسطاط لأنها لم تكن

---

(١) أندرية ريمون ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

محمية بالأسوار ، ولأجل منع العدو من إتخذها قاعدة له أمر بإخلائها وحرقها وفى ذلك يقول . المقريزى [1] . فنادى شاور بمصر ألا يقيم بها أحد وأزعج الناس فى النقلة منها فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد هاج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لايعبأ والدبولدة ولا يلتفت أخ إلى أخيه وبلغ كراء الدابه من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل ثلاثين دينارا ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم وقد سلبوا سائر أموالهم . . وبعث شاور بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق فى السماء فصار منظرا معمولا فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما . . ومن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن كيمان مصر وتلاشى أمرها » .

وقد أجمل لنا القلقشندى الخراب الذى حدث للفسطاط منذ تأسيس القاهرة ، وحتى نهاية الدولة الفاطمية بقوله [2] : « ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان ، باهى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين (العبيديين) بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حالة وتناقص ، وأخذ الناس فى الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه وتتابع الخراب

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، حـ ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٢) القلقشندى ، المصدر السابق ، حـ ٣ ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

فى بنيانه إلى أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية فى أواخر حكم العبيديين فأضرم شاور السعدى فيها النار فأتت على مساكنها وأحرقتها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلو » .

ويشكك عدد كبير من الأثريين فى الأثر الذى تركه حريق الفسطاط على عمرانها ، خاصة أن وثائق الجنيزة لم تشر إلى هذا الحادث ألا فى مواضع محدودة وتبين أثرا جزئيا للحريق ، ولم يذكر غليوم دوتير المؤرخ المرافق لحملة آمورى على مصر حادث الحريق ، أما ابن جبير الرحالة المغربى فيذكر أن أثر الحريق كان محدودا وأنه تم اصلاح ما أفسده الحريق[1] ونرى أن الفسطاط سبق وأن تعرضت لحريق على يدمرو ان بن محمد آخر الخلفاء بنى أمية ولكنها سرعان ما عاد إليها نشاطها ، وأن الحيوية الاقتصادية للفسطاط كانت كفيلة بإعادة العمران لها ، وأن الحريق شجع على إعمار مناطق طرح النهر على شاطئ الفسطاط ، فضلاً عن ما اعتاد عليه المؤرخون المسلمون من تضخيم مثل هذه الأحداث وتضخيم ما يترتب عليها .

ويرى محمود الحسينى ان تدهور الفسطاط بدأ قبل ذلك حينما أسست القاهرة إلى الشمال منها واتخذها العبيديون مقرالهم دون سواهم . نعم أن مدينة الفسطاط بقيت زمنا مركزا للتجارة والتجار والصناعة والحرفيين وسائر الشعب ولكن قيام القاهرة صوب إلى الفسطاط ضربة قاضية

---

(1) W . Kubiak , The Burning of Misrr al Fustat in 1168 , Africana Baulletin , n 75 . 1976 .

بحيث أصبحت المدينة الجديدة كلما قطعت مرحلة فى سبيل التقدم والرقى تخطو الفسطاط بجانبها مرحلة فى طريق التدهور والسقوط . وكان من نتائج هذه الشدة وهذا الخراب الذى حل بالمدينة أن هجر السكان بعض خططهم ونشأ عن تركهم تلك الخطط ما يسميه المؤرخون «خراب الفسطاط »[1] .

وهذه ملاحظة صائبة ، إذ أصبحت القاهرة وامتدادتها العمرانية صوب الجنوب فى اتجاه القلعة ومسجد ابن طولون فى العصر المملوكى ، مركز الثقل الاقتصادى لمصر ، وإن ظلت الفسطاط تخطى بأهمية خاصة ويعود ذلك لعدة أسباب لعل أهمها ، وجود مسجد عمرو بن العاص بها ، وهو يمثل كما يسميه المؤرخين تاج الجوامع ، وأول مسجد أسس بمصر ، وجامعة علمية ، والسبب الثانى استبحار العمران بالمدينة فى أراضى طرح النهر ، وذلك على حساب المدينة القديمة خلف مسجد عمرو بن العاص والتى تحولت تدريجيا إلى كيمان .

أن الفسطاط ظلت ميناءاً تجارياً يستقبل البضائع من صعيد مصر ـ فضلاً عن وجود العديد من المنشآت العامة ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لمصر مثل دار الصناعة ومقياس النيل .

---

(١) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .